

إن طبيعة العقل العربي لا تنظر إلى الأشياء نظرة عامة شاملة، فالعربي لم ينظر إلى العلم نظرة عامة شاملة كما فعل اليوناني، إلى أن قال: "هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف ما ترى في أدب العرب - حتى في العصور الإسلامية - من نقص وما ترى فيه من جمال". إلى أن هذا النوع من النظر الذي نجده عند العربي، هو طور طبيعي تمر به الأمم جميعاً في أثناء سيرها إلى الكمال، نشأ من البيئات الطبيعية والاجتماعية التي عاش فيها العرب، وإذا كان العرب سكان صحارى، أما العوامل التي عملت في تكوين العقلية العربية وفي تكييفها بالشكل الذي ذكره، فهي عاملان قويان. وليس أحد العاملين وحده هو المؤثر في العقلية. وتكلم على كل مظهر من هذه المظاهر وجاء بأمثلة استدلل بها ما ذهب إليه. والحدود التي وضعها أحمد أمين للعقلية العربية الجاهلية، لم يفرق فيها بين عقلية من عقلية الجماعتين. وقد كونها ورسمها من دراساته لما ورد في المؤلفات الإسلامية من أمور لها صلة بالحياة العقلية ومن مطالعاته لما أورده "أوليري" و"براون" وأمثالهما عن العقلية العربية، ومن آرائه وملاحظاته لمشكلات العالم العربي ولوضع العرب في الزمن الحاضر. لذا فأنتني لا أستطيع أن أقول أكر مما قلته بالنسبة إلى تحديد العقلية السامية، وتقوم نظرية أحمد أمين في العقلية العربية على أساس إنها حاصل شيئين وخالصة عاملين، أثرا مجتمعين في العرب وكونا فيهما هذه العقلية التي حددها ورسم معالمها في النعوت المذكورة. والعاملان في رأيه هما: البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية. وبالبيئة الاجتماعية ما يحيط بالأمّة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك. أو حاصل البيئة الاجتماعية وحدها. وخطأ من أنكر أثر البيئة الطبيعية في تكوين العقلية ومن هنا انتقد "هيكل" "Heagel"، لأنه أنكر ما للبيئة الطبيعية من أثر في تكوين العقلي اليوناني، وحجة "هيكل" أنه لو كان للبيئة الطبيعية أثر في تكوين العقلية، أما والعقل اليوناني نتيجة عاملين، وأثر البيئة الطبيعية في العرب، فلم يستطع السير فيها إلا الجمل، وأثر آخر كان لهذه البيئة الطبيعية في العرب، وتتألق النجوم في السماء فتمتلك عليه نفسه، ولعل هذا هو السر في الديانات الثلاث التي يدين بها أكثر العالم، موسيقاه ذات نغمة واحدة متكررة عابسة حزينة، كل هذه وأمثالها من صفات ذكرها وشرحها هي في رأيه من خلق هذه البيئة الطبيعية التي جعلت لجزيرة العرب وضعاً خاصاً ومن أهلها جماعة امتازت عن بقية الناس بالميزات المذكورة. في شرح أثر البيئة الطبيعية في عقلية العرب وفي مظاهر تلك العقلية التي حصرها كما ذكرت في اللغة والشعر والأمثال والقصص، أما أثر البيئة الاجتماعية التي هي في نظره شريكة للبيئة الطبيعية في عملها وفعلها في العقلية الجاهلية وفي كل عقلية من العقلية، ولم يتكلم على أنواع تلك البيئة ومقوماتها التي ذكرها في أثناء تعريفه لها، ثم خلص من بحثه عن العقلية العربية وعن مظاهرها وكأنه نسي ما نسبه إلى العامل الثاني من فعل، بل الذي رأيته وفهمته من خلال ما كتبه أنه أرجع ما يجب إرجاعه إلى عامل البيئة الاجتماعية - على حد قوله - إلى فعل عامل البيئة الطبيعية وأثرها في عقلية العرب الجاهليين. وهكذا صارت البيئة الطبيعية هي العامل الأول الفعال في تكوين تلك العقلية، وحرماننا بذلك من الوقوف على أمثلته لتأثر عامل البيئة الاجتماعية في تكوين عقلية الجاهليين.